

التلازم الضروري بين المكان والزمان أو بين التاريخ والجغرافيا

الدكتور لعموري عليش

المدرسة العليا للأساتذة في الآداب- الجزائر

من البديهي، أن الحديث عن التاريخ هو بالضرورة الحديث عن المكان والزمان، إذ هما يمثلان وجهين لعملة واحدة، فالماضي، وهو أحد أبعاد الزمان، هو موضوع التاريخ، بل غالبا ما يتبادر إلينا " الماضي " حين نذكر التاريخ وتلك نظرة أكثر المحدثين.

يقول "هنري جونسون ، عالم أمريكي": إن التاريخ بمعناه الواسع هو كل شيء حدث في الماضي، إنه الماضي نفسه مهما يكن هذا الماضي ⁽¹⁾. وكذلك المكان هو بعد من أبعاد التاريخ فلا يمكن الحديث عن التاريخ كأحداث ووقائع زمنية، دون الحديث عن التاريخ كوقائع وحوادث وقعت في مكان معين أو أماكن معينة، لذلك المكان والزمان يمثلان جوهر التاريخ. و للإيضاح أكثر نعرض الموضوع في النقاط الآتية:

الزمان والمكان في التراث :

إن فكري الزمان والمكان في التراث الإنساني العربي بالخصوص بارزتين في النصوص، فهاهو المعري " 363هـ - 449هـ" في رسالة الغفران يقول في أحد نصوصها عن الزمان والمكان مايلي: " الزمان شيء أقل جزء منه يشتمل على جميع المدركات، وهو في ذلك ضد المكان، لأن أقل جزء منه لا يمكن أن يشتمل على شيء كما تشتمل عليه الظروف فأما الكون فلا بد من تشبثه بما قل أو أكثر " ⁽²⁾

ويقول المعري في المكان والزمان شعرا:

مكان ودهر أحزنا كل مدرك ومالهما لون يحس ولا حجم ⁽³⁾

وقوله :

مناكب ساعاتي ركبت فأبتغى لبائنا وسير الدهر لا يتلبث

نهار وليل عوقبا أن فيهما كأني بخيطي باطل أتشبت

أظن زماني (كونه) و (فساده) وليدا بترب الأرض يلهو ويعبث ⁽⁴⁾

¹ - إبراهيم العاتي، الزمان في الفكر الفلسفي، دارالمنتخب، العربي، بيروت لبنان سنة 1993 ص. 93.

² - أبو العلاء المعري ، رسالة الغفران ، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان سنة 1980 ، ص ، 426 ،

³ - أبي العلاء المعري ، لزوم ما لا يلزم ، اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص 378 .

⁴ - أبي العلاء المعري ، لزوم ما لا يلزم " اللزوميات " المجلد الأول دون طبعة ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ص 246 ،

الدكتور لعموري علدش

و نجد الرازي الطبيب" ولد حوالي، 251هـ وتوفي حوالي، 313هـ " يتكلم عن الزمان، فاعتبره النور الذي يهدي الفكر الإنساني إلى مدارك الحقيقة. يقول: "إن قد سألت مثل هؤلاء الناس، وقالوا لي عقولنا تدلنا على أنه يوجد خارج هذا العالم امتداد يحيط بالعالم، ونعرف أنه لوأرتفع الفلك، ولم يوجد دورانه كان شيء يمر بنا دائما، و هو الزمان"⁽⁵⁾ أما ابن سينا "980م ت 1037م) فتراه يجسد الزمان في الوجود الطبيعي و الإنساني، وأنه محور الأحداث والوقائع فيقول: "لا يتصور الزمان إلا مع الحركة، ومتى لم يحس بحركة لم يحس بزمان مثل ما قيل في قصة أصحاب الكهف "⁽⁶⁾ ويوجد في تراثنا نصوص كثيرة عن الزمان والمكان لا يتسع المقال إلى ذكرها جميعا، ولكن ذكرنا هذه النصوص السابقة لإثبات الفعل المعرفي والإشارة إليه من طرف علمائنا، لأهمية المكان والزمان في بناء المعرفة بصفة عامة، والمعرفة التاريخية بصفة خاصة. فقد ذكر علماء العرب أن التاريخ هو الزمان والمكان، وأنهما أكثر حيوية و خصوصية في التفعيل الحركي لوعي الإنسان في بناءاته الإنسانية فالإنسان هو الوحدة التي يدور حولها التاريخ لذلك قال السخاوي(ت 902هـ): "التاريخ فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت و موضوعه الإنسان والزمان "⁽⁷⁾

المكان و الزمان و السؤال المنهجي :

لهذا كان من غير الممكن تصور الفعل الإنساني وقوع حوادث من أي نوع كانت من دون أن يلتزم السؤال المنهجي الذي يحدد طبيعة وجودها، ويتم هذا بطرحه لظرفين زمانيين متى؟ وأين؟ فارتبط علم التاريخ إجابة عن السؤال الأول وارتبطت الجغرافيا إجابة عن السؤال الثاني، وقد تنبه في تاريخ الفكر العربي الإسلامي الوسيط جماعة إخوان الصفا إلى هذا النهج المعرفي إذ درسوا في إحدى رسائلهم الشهيرة وهي رسالة الصنائع العلمية في كمية أقسامها وكيفية مراتبها وإيضاح طرائقها ومذاهبها والغرض منها تعديد أجناس العلوم وأنواع الحكم و بيان أعراضها وحقائقها و الاهتداء لطلب العلوم و الحكم و التوقيت عليها و كيفية الطريق إليها و بيان معرفتها (إخوان الصفا، ج، 1، 1957ص،

⁵ - أبو بكر محمد بن زكرياء الرازي ، رسائل فلسفية الجزء الأول ، تحقيق بول كراوس ، مطبعة بول بارييه مصر، سنة 1993 ص ، 264 .

⁶ - ابن سينا، النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية، والإلهية، الطبعة الثانية، مطبعة السعادة مصر، 1938، ص، 115.

⁷ - الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الوهاب السخاوي ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، مطبعة الترقى ، دمشق ، سنة 1349هـ ، ص ، 7 ،

التلازم الضروري بين المكان والزمان أو بين التاريخ والجغرافيا

258 إلى 275). فرأوا بأنها تنحصر في تسعة أجوبة، لتسعة أسئلة يقولون: " و أعلم بأن الأسئلة الفلسفية تسعة أنواع مثل تسعة أحاد أولها. هل هو؟ والثاني ماهو؟ والثالث كم هو؟ والرابع كيف هو؟ والخامس أين شيء هو؟ والسادس أين هو؟ والسابع متى هو؟ والثامن لم هو؟ والتاسع من هو؟ وذهبوا إلى تفسير هذه الأسئلة على النحو الآتي:

- * السؤال الأول: هل هو؟ يبحث عن وجود شيء أو عدمه و الجواب نعم أم لا
- * السؤال الثاني: ماهو؟ يبحث عن حقيقة الشيء .
- * السؤال الثالث: كم هو يبحث في مقدار الشيء.
- * السؤال الرابع: كيف هو؟ يبحث عن صفة الشيء .
- * السؤال الخامس: أي شيء هو؟ يبحث عن واحد من الجملة أو عن بعض من الكل.
- * السؤال السادس: أين هو؟ يبحث عن مكان الشيء أو عن رتبته.
- * السؤال السابع: متى هو؟ يبحث عن زمان كون الشيء.
- * السؤال الثامن: لم هو؟ يبحث عن الشيء المعلوم .
- * السؤال التاسع: من هو؟ يبحث في التعريف للشيء⁽⁸⁾.

إن هذه الأسئلة تتضمن علم منهج في البحث عن حقائق الأشياء من منطلق طبيعتها وغايتها، وأن هذه الأسئلة في نظر إخوان الصفا التي تصنف الصنائع العلمية، ليست إلا بعض معطيات فن التعليم، وفن التدقيق، وفن التمهيد التي اهتمت العرب إليها قبل غيرهم من الأمم.

هذا وقد اهتمت العرب إلى تمحيص فكرة الزمن حتى على النحو عفوي، بالوقوف عند العلاقة بين المكان والزمان، فأرتبط التاريخ عندهم بالجغرافيا ارتباطاً عضوياً، ونقف على هذه العلاقة عند الكثير من علماء التاريخ في مؤلفاتهم، منهم البيروني، والمسعودي، والمقريزي و ياقوت الحموي، والطبري، وابن خلدون، ويعتبر علماء العرب أنهم من الأوائل الذين ربطوا الجغرافيا بعلم الفلك، وسلخوا في هذا المنحى مسلكاً إيجابياً، فهذا البيروني في كتابه " الآثار الباقية في القرون الخالية " يرى بأن التاريخ يدرس من خلال الآثار التي تبقى في الأمكنة و "الرسوم" والنواميس ولا طريق إلى التاريخ من جهة البرهنة بالمعقولات لأن "العلم اليقيني لا يحصل إلا في إحساسات يؤلف بينها

⁸ - إخوان الصفا وخلق الوفاء ، رسائل إخوان الصفاء ، المجلد الأول ، طبعة دار صادر ، ودار بيروت ، لبنان ، سنة 1957 ، ص ، 262 ،

الدكتور لعموري علدش

العقل على نمط منطقي " وفي كتابه أيضا وهو " تحقيق ما للهند من مقولة في العقل وأومردولة " دلالات واضحة على منهجه العقلي في أبحاثه التاريخية.

الزمن وعلم حساب التواريخ:

إن التاريخ أو الزمن بمعناه العادي الذي يتمثل في الساعات والأيام والشهور و الفصول مأخوذة عن أحداث الفلك و دوراته وحركاته و إن الوحدات الزمنية من الساعات و الليل و النهار.... الخ فوضعها كان خاضعا لما يظهر في الفلك من ظواهر طبيعية، كشروق الشمس وغروبها وظهور القمر والكواكب الأخرى و تواربها، ويتم هذا وفق كم رياضي مقدر ومحسوب فهناك حسابات تأخذ منها لمعرفة هذه الظواهر الطبيعية من حيث غيابها أو ظهورها، واصطلح عليها فيما بعد. وتكون من هذه الاصطلاحات في عصرنا علم (حساب التواريخ) الذي يقوم بوظيفة تفسير وشرح التقاويم العديدة التي كانت تستعمل في أماكن مختلفة وفي أزمان مختلفة وهذا ما يجعلنا منا وفي مقدورنا واستطاعتنا أن نحول التواريخ من تقويم إلى آخر.

هذا، وإذا كان معنى الزمن احتل مكانة في ذهن الإنسان بالمعنى الاجتماعي المتمثل في تقاويم عديدة من خلال ملاحظة الكواكب، وتغيير حركاتها، كالشمس والقمر والظلال و الأنوار و امتداداتها و تقلصاتها و تعاقب الأجرام السماوية، وتوالي الفصول، و ما إلى ذلك من الحركات الطبيعية للظواهر التي تتكرر في الطبيعة بانتظام فإن هذا يضطلع بنا، أن نقول: أن مفهوم الزمان كان ولا يزال يختلف من مكان لآخر، من بلد لبلد، ومن مناخ إلى مناخ، لأن حركات الكواكب و صيرورتها تختلف، والليل والنهار يقصر في فصل ويطول في فصل، وبالتالي من غير الممكن أن يكون أو يبقى مقياس زمني ثابت إلى حين يرتبط بالمكان. وهذا ما جعل بالمتأخرين على إضافة الأوقات إلى الأمكنة معتمدين في ذلك إلى معايير قياسية مستنبطة من أنظمة حسابية دقيقة بينت أنه عندما تكون الساعة في مدينة غرينتش في الثانية عشر ليلا تنقص أو تزيد في البلدان الأخرى و في جميع أنحاء العالم.

وعليه ما مادمت ظاهرة الزمن أو الوقت تختلف باختلاف الأمكنة أو بقاع المعمورة في عرضها و طولها، وعمقها، وارتفاعها، فإن هذا يتطلب أمرا آخر يحدث بالنسبة للكائنات الحية سواء هي موجودة على الأرض أو على غيرها من الكواكب⁽⁹⁾. مع العلم أن الإسلام

⁹ - عبد اللطيف شرارة ، الفكر التاريخي في الإسلام ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، سنة 1983 ، ص ، 46 - و ص 47 .

التلازم الضروري بين المكان والزمان أو بين التاريخ والجغرافيا

قد وضع قطيعة إبستمولوجية تفصل بين خطين من الزمنين خط يمثل الزمان الإلهي و خط يمثل الزمان الإنساني ويتجسد هذين الزمنين في أكثر من آية.

الزمان الإلهي:

لقد بين الله تعالى هذا الزمان في آيات عديدة مختلفة في المعنى، وفي المقصد قال الله تعالى: ﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾⁽¹⁰⁾. فالكاف الذي ورد في الآية كحرف تشبيه فإنه في أصله المعرفي لا يفيد وضع مقياس رياضي، وإنما وضع للبيان والإيضاح بقصد تقريب الحقيقة التي هي من غير الممكن إدراكها حسيا وعقليا من طرف الإنسان و قول الله تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾⁽¹¹⁾، وكذلك يقول الله تعالى: ﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾⁽¹²⁾ إن هذه الآيات تدل على أن اليوم زمنا مقدرا يعلمه الله كما هو حادث في أيام خلق السموات والأرض، وأنها تعبر عن أحداث ووقائع وقعت، أو ستقع بمعنى زمني مطلق، وأن الفعل الإلهي واقع عليها لا محال. إلى جانب هذه الآيات، هناك آيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم تنص عن الزمان الإلهي مثل قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾⁽¹³⁾

الزمان الإنساني و التاريخ :

الزمان الإنساني هو الزمان الذي يرتبط بوعي الإنسان وذاكرته و شعوره و تاريخه، ومقدار حظه من المعرفة والعلم وقدرته على التذكر واستيعاب الحوادث و الوقائع و استرجاع الذكريات، دلالة على قدرته لتمثل الزمن في معطاه النفسي والإنساني بوجه عام، وقد نجد كثير من الآيات القرآنية تدل على هذا الزمن الإنساني ففي سورة أهل الكهف تصور لنا ظاهرة الزمن الإنساني في أبعاده المطلقة و النسبية تصورا علميا دقيقا بمقادير حسابية معلومة يستنبطها الإنسان بذاكرته بعد استيعابه لها و هي تجربة فريدة من نوعها في التاريخ الإنساني ككل . يقول الله تعالى ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم " كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم...﴾⁽¹⁴⁾

¹⁰ - قرآن كريم ، سورة الحج الآية 47

¹¹ - قرآن كريم ، سورة المعارج ، الآية 4

¹² - قرآن كريم ، سورة سبأ ، الآية ، 30 .

¹³ - قرآن كريم ، سورة ، هود ، الآية ، 7.

¹⁴ - قرآن كريم ، سورة الكهف ، الآية ، 19.

الدكتور لعموري علدش

والحقيقة أنهم ﴿لبثوا في كهفهم ثلاثة مائة سنين وازدادوا تسعا﴾⁽¹⁵⁾ وقد عبر بن سينا في كتابه النجاة عن الزمان فقال: "لا يتصور الزمان إلا مع الحركة ومتى لم يحس بحركة لم يحس بزمان مثل ما قيل في قصة أصحاب الكهف"⁽¹⁶⁾ وقد نجد الفيلسوف الرازي يعبر عن هذا الزمان الإنساني بقوله: "إني قد سألت مثل هؤلاء الناس وقالوا لي إن عقولنا تدلنا على أنه يوجد خارج هذا العالم امتداد يحيط بالعالم، ونعرف أنه لو ارتفع الفلك ولم يوجد دورانه كان شيء يمر بنا دائما هو الزمان"⁽¹⁷⁾ هذه المعطيات المعرفية الثلاثة التي ذكرناها وهي باختصار

- ترابط المكان بالزمان
 - تنوع مفهوم الزمان بتنوع مفهوم الوجود الحي.
 - علاقة الزمن الإنساني بالنفس البشرية وحالاتها.⁽¹⁸⁾
- إن هذه المعطيات هي التي كانت الأرضية الفكرية والعلمية التي قام عليها الفكر الإسلامي عامة، ولكنها لم تتضح لجميع العقول ولا وعائها المفكرون والمؤرخون بدقة، و لم تكن في متناول الجميع أيضا. فقد لا نثر على مفكر أو مؤرخ أو عالم من تناول هذه المسألة ما عدا المفكر اللغوي والعالم الرياضي وهو أحمد المرزوقي الذي عاش في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة والنصف الأول من القرن الخامس. (يقال أنه توفي حوالي سنة 421هـ) ألف كتاب بعنوان "الأزمنة والأمكنة" والهدف العام من وراء هذا الكتاب هو تفسير وتعليل الدلالات أو الألفاظ التي تنطوي على معاني المكان والزمان والتي وردت في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة مبينا معانيها الظاهرة والباطنة .

وقد أدى البحث اللغوي بهذا العالم أن يغوص في أعماق دلالات اللغة ويكشف كنه سرها واقفا على معانيها المطلقة والنسبية منها إلى بيان العلاقة بين الزمان (محمد بن الحسن المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، ج1، و، ج2، الباب الثاني ص، 124 إلى 126) و المكان من دون أن يجعل منهما شيئا واحدا فكتب يقول: " وسنذكر قطعة واسعة من الأزمنة تأنيسا بأسمائها، إلى أن نتمكن من شرح جملها وتفصيلها ونأتي على حقها و

¹⁵ - قرآن كريم ، سورة الكهف ، الآية ، 25 .

¹⁶ - ابن سينا ، النجاة ، ص ، 115 ..

¹⁷ - الرازي ، رسائل فلسفية ، ص ، 264 .

¹⁸ - عبد اللطيف شرارة، الفكر التاريخي، ص، 48.

التلازم الضروري بين المكان والزمان أو بين التاريخ والجغرافيا

حقيقتها وندرس في أثناءها الكثير من مهمات الأمكنة لأنها هي التي تكون ظروف دون محدداتها" (19)

إن هذا الموقف العلوي الذي أتى به المرزوقي قد سبق به علماء العصر الحديث من الأوروبيين أبرزهم "ألبرت أينشتاين" وهو أن المكان لا يعقل إلا في إطار الزمان حجته " أن الأمكنة هي التي تكون ظروفًا دون محدوداتها (20)" وقد وضع الباحث اللغوي المرزوقي معاني تحملها بعض الكلمات العربية ذات الأوصاف الخاصة بالزمن والمكان وراح يتفنن في ضبط كنه أغوارها، مثل البارحة فيقول: " الليلة بليلتك التي أنت فيها، والبارحة ليلة يومك الذي أنت فيه، وقد مضت وهي من: " برحت " أي انقضت، ما برحت أفعل كذا و أصله البراح من المكان (21) و الحال كذلك لعدد كبير من الألفاظ أو الدلالات مثل الميقات، المدى، المسافة، البرهة، اللحظة، الخ

يرى المرزوقي أنه يحدث اختلاف الزمن باختلاف حالة النفس ومكانها من الوجود، وهو الرأي نفسه الذي نجده عند رجال أهل التفسير ملتزمًا في ذلك المبدأ الديني الشائع الذي ينص عن الحيطة من الوقوع في الزلل والخطأ، والمتمثل في عبارة "أعلم" فيقول في بيان حالة الإنسان ووضعه في الجنة، وحالة الإنسان ووضعه في الدنيا، عند استعمال الكلمات الدالة عن الزمن وأما قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (22). فإن هذا نكرة، وليس يريد كل بكرة وكل عشية. وإنما تأويله أعلم كما يقول المرزوقي: " فجميع ذلك أجري لأوقات مؤقتة لمعاني قدرها الله تعالى على أحوال ورتبها مراتب صورها، فمنها ما هو أطول ومنها ما هو أقصر على حسب آماذ الأمور المقدورة فيها فمثلاً كلا بما تقرر به النفوس غايته وأمدّه ومقداره وموقعه ، مما كنا نعرفه ونألفه ونشاهده ونتصرف فيه، وإذا كان الأمر على ما ذكرنا وحصل من الحكيم التوقيت على ما بينا ظهر كثير من عاداتهم فيه وأنهم تخيروا ما كان في الاستعمال أئين، وفي العرف أمتن وعلى المراد أدل وفي التنبيه أنبه وأجل" (23).

19- أبي علي احمد بن محمد الحسن المرزوقي ، الأزمنة والأمكنة ، ج ، 1 حققه وعلق عليه الدكتور محمد نايف الدليبي ، دارعالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، سنة 2002 م ، ص ، 124

20- فرنسواز بليار ، أينشتين يقرأ غاليليو ونيوتن ، المكان والنسبية ، ترجمة الدكتور ، سامي أدهم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ، لبنان ، ص ، 117 .

21- أبي علي احمد بن محمد الحسن المرزوقي ، المصدر السابق، ج ، 1 ، ص ، 127 ، و، ص ، 128 .

22- قرآن كريم ، سورة مريم ، الآية ، 62 ،

23- المرزوقي ، المصدر نفسه ، ج ، 1 ، ص ، 128 .

الدكتور لعموري علدش

إذن أن الجنة لا ليل فيها يفضي إلى نهار ولا نهار يتصل بليل ولا شمس ولا قمر إنما هو في مثل مقادير العادة في الدنيا⁽²⁴⁾.

ويذكر في موقع آخر من الكتاب نفسه الآية ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ بغرض إيضاحها والتعليق عليها من حيث ربط المكان بالزمان ربطا واقعيا وميتافيزيقيا وفي صورة نفسية معنوية ومادية أيضا فيقول: " يريد على ما اعتادوا في الدنيا، والبكرة، ما اتصل بما قبله من الليل، والعشي، ما يتصل به الليل ولا ليل في الجنة ولكن على ما ألفوا في الدنيا وتعودوه من الأوقات" ⁽²⁵⁾

و البرهان العلمي المعتمد عندنا اليوم في التسليم بالحقيقة السابقة و هي اختلاف الزمان كليا باختلاف حالة النفس يمثلها زمن الأحلام (فرويد ، الهذيان والأحلام في الفن) لأن الإنسان في حالة الحلم، والنوم عامة يعيش زمنا يختلف جذريا عن الزمن الذي يعيشه وهو في حالة اليقظة ويختلف أيضا في حالة الإغماء والانفعال الشديد سواء في حالة الإيجابية أو السلبية. فمثلا أن الحلم أو المنام الذي يصاحب الإنسان في حالة النوم يحمل معه صورا و أحداثا و وقائع و كلام طويل تتعقبه فترات زمنية قد تقاس بالسنين ، لكن بعد اليقظة مباشرة يشعر الإنسان بخيبته، وذلك لعدم قدرته على سرد كل الأحداث والكلام والوقائع التي حدثت له في هذا الحلم وحتى على تسجيلها و يدل هذا أن الزمن النفسي الواعي و غير الواعي عند الإنسان بالخصوص لا يمكن أن يقاس قياسا كميا بل يخضع لكيفية أو ديمومة مستمرة خالصة ينتهي هذا الزمان الإنساني النفسي عند الزمان الإلهي .ومن غير الممكن تعقل هذا الزمان " معرفته" إذا لم تكن ذاتنا تحمله أي لا بد من مكان ، فالمكان هو الصورة الفعلية لحمل هذا الحدث الكمي الذي دلالاته متنوعة، كقولنا التوقيت، الحال، الوضع، الزمان الليل النهارالخ، ولذلك نجد القشيري قال: " الوقت ما أنت فيه، إن كنت بالدنيا ،فوقتك الدنيا وإن كنت بالعقبى، فوقتك العقبى، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن إن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان " ومعنى هذا أن إدراكنا للزمن يعتمد على مسألة التزامن أو الآنية.

هذا ونجد الإمام فخر الدين الرازي(1149م-1209م) الذي جاء بعد المرزوقي بحوالي قرنين من الزمان يستدل على فكرة الترابط بين المكان والزمان حيث ذكر هذا

²⁴ - نفس ه ، ص ، 128

²⁵ - المصدر نفسه ، ص ، 143 .

التلازم الضروري بين المكان والزمان أو بين التاريخ والجغرافيا

الاستدلال في تفسيره الشهير (مفاتيح الغيب) عند شرحه للآية ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾⁽²⁶⁾ الطور فيقول الإمام الرازي " فإن الفعل لا يضاف إليه شيء غير الزمان فيقال يوم يخرج فلان وحين يدخل فلان ... و السبب في ذلك فنقول: الزمان ظرف الأفعال كما أن المكان ظرف الأعيان وكما أن جوهرًا من الجواهر لا يوجد إلا في مكان فكذلك عرض من الأعراض لا يتجدد إلا في زمان وفيهما تحير خلق عظيم فقالوا: إن كان المكان جوهرًا فله مكان آخر ويتسلسل الأمر، وإن كان عرضًا فالعرض لا بد له من جوهر، والجوهر لا بد له من مكان فيدور الأمر أو يتسلسل وإن لم يكن جوهرًا ولا عرضًا فالجوهر يكون حاملًا فيما لا وجود له أو فيما لا إشارة إليه، وليس كذلك، وقالوا في الزمان إن كان الزمان غير متجدد فيكون كالأمر المستمرة فلا يثبت فيه المضي والاستقبال وإن كان متجددًا وكل متجدد فهو في زمان فللزمان زمان آخر، فيتسلسل الأمر ثم إن الفلاسفة التزموا التسلسل في الأزمنة و وقعوا بسبب هذا في القول بقدم العالم و لم يلتزموا التسلسل في الأمكنة و فرقوا بينهما من غير فارق⁽²⁷⁾ هذا، وأن الرازي له إطلاع واسع في علم الكلام وعلم الفقه والرياضيات وعلم الطب وعلم التفسير وذلك من خلال الكتب التي ألفها في هذه العلوم فتدل على أن الرجل عالم بالعلم الإنساني والشري وفقه في كليهما وقد ساعدته هذه العلوم وخاصة الرياضيات على إدراك العلاقة بين المكان والزمان، كما أن دراسته للتاريخ الإسلامي ارتبطت بمقولة المكان والزمان وتأمله وفهمه لقرآن الكريم أيضا جسده ضمن هاتين المقولتين وخاصة في تفسيره لكثير من آي الكريم كحقائق علمية كمية⁽²⁸⁾

هذا، ونجد في التاريخ الإسلامي المجيد اهتمام علماء الإسلام، وخاصة علماء علم الحديث، حيث ظهرت لدى البعض منهم نزعة علمية تشدد في بيان الحق الخالص للنص الديني. "الحديث الشريف" و متجاوزة في ذلك كل شائبة، و كل هوى، أو غرض شخصي، أو عصبية قبلية كانت سببا في تلفيق الأخبار ووضع الأحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهض المخلصون، لتدرك هذا الخطر، وكان بإيمانهم للحق الخالص، و الموضوعية العلمية، أن يلتزموا مقولتي الزمان والمكان في تصحيح الحديث، ووضعها، مما جعل من هاتين المقولتين خطوة أساسية في بناء الحديث و منهجه. وقد

²⁶ - قرآن كريم ، سورة الطور ، الآيتان ، 8 ، و ، 9 .

²⁷ - فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ، الجزء السابع والعشرون ، دار إحياء التراث

العربي، ج ، 27 و ، 28 . الطبعة الثالثة ، بيروت ، لبنان ، ص ، 249 .

²⁸ - المصدر نفسه ، ص ، 249 .

الدكتور لعموري علدش

لخص هذا الموقف العلمي الأستاذ قدري حافظ في كتابه " العلوم عند العرب"، بقوله: "و قد ثبت أن المسلك الذي اتبعه العرب في تنقية الحديث و تمييز صحيحه من موضوعه قد أثر إلى حد في أساليب العلماء إذ أبان لهم إتباع الطرق التي تؤدي إلى الحق، كما أوضح لهم منهجا دقيقا للسير بموجبه للوصول إلى الحقيقة و إلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال، وكذلك كان للأساليب التي اتبعها علماء الأحاديث فضل كبير على التاريخ وأصبحت القواعد التي ساروا عليها في تحري الحقيقة هي المعول عليها لدى المؤرخين المعاصرين ومحل تقديرهم وإعجابهم"⁽²⁹⁾

إذن: فعلماء الحديث اعتمدوا التاريخ في تحقيق النصوص، وإخراج ما ظهر منها و ما بطن، و الوقوف على صحة الحديث. إذ الأدوات المعرفية و المنهجية المعتمدة في التاريخ، طبقت في دراسة علم الحديث. و قد نجد في تاريخ الفكر الفلسفي الأوروبي، الفيلسوف لويس ماسينيون ت 1962 يعالج المسألة، في مقال ترجمه الأستاذ شعبان بركات، وهو الزمان في الفكر الإسلامي فيقول: "عودتنا الرياضيات منذ عهد كانط اعتبار الزمان صورة أولية من صور الحدس فهو بهذا إلى جانب المكان ذي الأبعاد الثلاثة، البعد الرابع للعالم لامتداده..." و يذهب أيضا إلى القول: " أننا بالرغم من ذلك نحس بنوع من الانقباض في تفكيرنا كلما خيل إلى هذا التفكير أنه يدرك معنى الزمان، كما أننا نشعر بأن "الممكن" أغنى مما هو كائن وأن عناصر المشكلة تحتوى على أكثر مما تحويه حلولها، وأن البحث أكثر تعقيدا من الاختراع"⁽³⁰⁾ و يرى ماسينيون أن الإسلام كفكر ديني يصبو نحو توحيد متعال إلى نظرة أخرى للزمان إذ ليس الزمان بالنسبة إليه شيء يجب إبداعه بل أن الزمان هو الذي يطلعنا على أمر الله و قضائه هذا الـ "كن" الذي تصدر عنه أفعالنا التي سوف نحاسب عليها " ليس الزمان إذا في نظر الفقيه المسلم (دهرا) دائما مستمرا بل هو مجموعة من الأوقات (اللحظات) كما أن المكان مجموعة من النقاط..."⁽³¹⁾ و يؤكد "ماسينيون" أن " اللاهوتي المسلم لا يعتبر الزمن دواما ممتدا متواصلا بل يعتبره كوكبة من النجوم أو (مجرة) من اللحظات "

و يعتمد ماسينيون في تعميم أطروحته على حجج مستمدة من القرآن، والنحو العربي، و علم الكلام، والطقوس الدينية، ومن الصوفية، والموسيقى، وغيرها من نشاطات و

²⁹ - قدري حافظ طوقان ، العلوم عند العرب دار إقرأ ، الطبعة الثانية ، سنة 1983 بيروت ، لبنان ، ص ، 87.

³⁰ - لويس ماسينيون ، مجلة الآداب الزمان في الفكر الفلسفي الإسلامي ، ترجمة شعبان بركات ، مجلة

الآداب عدد (08) شهر آب السنة الأولى 1953 بيروت لبنان

³¹ - المرجع نفسه ص ، 12 ،

التلازم الضروري بين المكان والزمان أو بين التاريخ والجغرافيا

مجالات الحياة الإسلامية. لكنه أخفق في تقرير الحقيقة، لأنه لم يقرأ هذه المصادر، قراءة واعية باطنية، ولم يعتمد على شروحها، وشرح شرح شروحها، بقدر ما أخلص فيها إلى استنتاجاته الشخصية. واتبع الشائع فيها من الآراء حول أمر الله وقضائه، من غير تمحيص ولم ينظر، ويعتبر أن الإسلام، كفكر ديني يضع حدا فاصلا، وواضحا بين الزمن الإنساني، والزمن الإلهي، وأن قضاء الله وأمره، وقدرته، وقوته تتعلق بالزمن الإلهي، وأن الإنسان في الإسلام يحاسب عن أعماله، لا عما يخرج بطبيعته عن دائرة علمه، وطاقتة.⁽³²⁾ وليس صحيحا في نظر الفقيه المسلم بأن الزمان هو مجموعة من الأوقات فحسب، وكذلك أن المكان مجموعة من النقاط، حيث يوجد ما يدحض هذا الطرح رأي صائب يمثله كلام العلماء كالمرزوقي و الرازي الذين استندوا في آرائهم إلى القرآن، و الأحاديث النبوية، فالمرزوقي بين أن الأزمان أوسع من الأمكنة لأن الأحداث انقسمت بانقسامها فبي تتضمنها دون الأشياء والأشخاص، ويستند في إثبات صحة رأيه ما يقول سيبويه " المكان أشبه بالأناسي فله صور تثبت عليها و حدود تنتهي إليها و تتباين بها " وقد نجد كاتب آخر من الناقمين على الإسلام وغير ملم بجوهر كنوز الإسلام العلمية و المعرفية و هذا ما جعله يقع في خندق الضلال و دائرة الخطأ وهو الباحث الفرنسي جول كوريان Gull Curien في بحث له بعنوان "الأخلاق في السياسية " فذكر أن الزمان انحطاط محض يحتقره الإسلام كيلا يسعى إلى وراء كمال بدائي" الفكر الإسلامي يجهل الأمد المستمر ولا يواجه سوى ذرات الزمان سوى اللحظات الأتات⁽³³⁾"

والقول الموضوعي يجعلنا نقول: لمن أراد أن يدرس الإسلام و يتحدث عنه يجب معرفته من منطلق الموضوعية العلمية، فالإسلام لا يحتقر الزمان، ولا يعتبره محض انحطاط فهو ينظر إليه بعد تمييزه بين الزمن الإلهي، والزمن الإنساني، أنه سلسلة مترابطة الحلقات، وكل حلقة تتضمن على عبرة و حقيقة دائمتين، والحلقة الأخيرة هي جمع القيم كلها. والعقل العربي يحمل هذا المفهوم للزمن

³² - محمود أمين العالم ، مفهوم الزمان في الفكر العربي الإسلامي ، ترجمة المنجي عبيدة ، ضمن مجلة الحياة الثقافية عدد 34 ، وزارة الشؤون الثقافية القصبة ، تونس ، ص ، 52 ، إلى ص ، 58 ،

³³ - عبد اللطيف شرارة ، مرجع سابق ، ص ، 53 ،

الدكتور لعموري علدش

ويميل إلى زمن حاضره لفهم وتبصرو تحسين أحوال المستقبل أو المصير، وهذا الموقف الزمني عند العربي لا يشير إلى احتقار بقدر ما يشير إلى منطق الواقع وما يفرضه هذا المنطق من تحرر في الحاضر واقبال على العمل دون اجترار الماضي، و الغوص في أعماقه، وأيضا أن النقطة الفاصلة في هذا المقام البياني أن الزمن الإنساني، ليس شيئا يذكر إلى جانب الزمن الإلهي في الإسلام. ويكفي أن نعقد مقارنة بين يوم واحد، وألف سنة مما نعد. أو خمسين ألف سنة، لتجد عظم الفرق وضخامته بين الزمنين. إذ يصبح اليوم الإنساني أقل بكثير من اللحظة، ولا يمكن قياس ضالته.⁽³⁴⁾

وفي الأخير: إن الزمان والمكان يمثلان بالنسبة لعلم التاريخ صلب موضوعه فهما يقوم، ويقيم، المؤرخ الحدث التاريخي من حيث صحته أو خطأه ويقف على الحدث و مدى ارتباطه بالفعلين الزماني والمكاني، كما أن الحضارة الإنسانية مهما كان مستوى رقيها وكذلك وجودها فإننا نقف على فكريتي المكان والزمان في تبرير مستوى هذا الرقي والوجود معا.

هذا وإذا تطرقنا إلى الخطاب الإسلامي لمسألتي الزمان والمكان إنما نقصد من وراءه بيان أن فكرة الزمان والمكان، قد طرحت ضمن النصوص الدينية الظاهرة، وهذا لبيان علمية التاريخ وموضوعيته، و من جهة أخرى بيان أن الإسلام يجعل من هاتين الفكرتين أسس العلم و بنائه وسر الوجود وفنائه، ونخلص إلى نتيجة مفادها أن هناك زمان إنساني، وزمان إلهي، ولا يمكن الحديث عن الزمان، دون المكان، والعكس صحيح، لأنهما أطر المعرفة وأطر الوجود.

³⁴ - نفسه ، ص ، 53 .

التلازم الضروري بين المكان والزمان أو بين التاريخ والجغرافيا

- القرآن الكريم

المصادر والمراجع :

- 1- إبراهيم العاتي (1993)، الزمان في الفكر الإسلامي، دار المنتخب العربي، بيروت لبنان.
- 2- أبي العلاء المعري (1980)، رسالة الغفران، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان.
- 3- أبي العلاء المعري (من دون سنة) ، لزوم ما لا يلزم ، اللزوميات ، المجلد الأول ، والثاني ، دار بيروت للطباعة والنشر. لبنان.
- 4- أبي بكر محمد بن زكرياء الرازي (1993)، رسائل فلسفية ، الجزء الأول ، تحقيق، بول كراوس ، مطبعة بول بارييه ، مصر.
- 5- ابن سينا (1938)، النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية، نشر معي الدين صبري الكردي، على نفقته، الطبعة الثانية، مطبعة السعادة، مصر.
- 6- الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الوهاب السخاوي (1349هـ)، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، مطبعة الترقى ، دمشق..
- 7- إخوان الصفا (1957)، رسائل إخوان الصفا، المجلد الأول، طبعة دار صادر، ودار بيروت، لبنان.
- 8- عبد اللطيف شرارة، (1983)، الفكر التاريخي في الإسلام، دار الأندلس، بيروت، لبنان.
- 9- أبي علي احمد بن محمد الحسن المرزوقي (2002) الأزمنة والأمكنة ، ج ، & حقه وعلق عليه الدكتور محمد نايف الدليهي، دار عالم الكتب ، بيروت لبنان.
- 10- فرنسواز بليار (1993)، آينشتين يقرأ غاليلو ونيوتن ، المكان والنسبية ، ترجمه الدكتور سامي أدهم ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ، لبنان.
- 11- فخر الدين الرازي (من دون سنة)، التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ، الجزء السابع والعشرون ، 27، دار إحياء التراث العربي الطبعة الثالثة ، بيروت ، لبنان.
- 12- قدرى حافظ طوقان (1983)، العلوم عند العرب، دار اقرأ، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان.
- 13- لويس ما سينون (1953)، الزمان في الفكر الفلسفي الإسلامي، ترجمة شعبان بركات ، مجلة الآداب عدد (08) السنة الأولى ، بيروت لبنان.

الدكتور لعموري علدش

14- محمود أمين العالم (1984)، مفهوم الزمان في الفكر العربي الإسلامي، ترجمة المنجي عبيدة ، ضمن مجلة الحياة الثقافية ، عدد 34، وزارة الشؤون الثقافية، القصبة ، تونس.

15- سيغموند فرويد،(1978) الهذيان ولأحلام في الفن، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر الطبعة الثانية بيروت، لبنان.